# الاسس الاسلامية للحياة الروحية

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حلمى

الأستاذ فى كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

---

نص المحاضرة القيمة التى ألقاها الدكتور حلمي بقاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة الأزهرية :

واستقبلتها الأوساط العلمية بالتقدير والإعجاب

أيها السادة :

للإنسان حياتان : حياته المادية التى يحياها إنسانا عاديا مقبلا على ما فى الحياة من متاع وجاه وزخرف ، وحياته الروحية التى يحياها فيما بينه وبين نفسه يصفيها وينقيها ، ويسمو بها عن هذا الدرك المادى الذى يغرق فيه الإنسان العادى ، والحياة بهذا المعنى الروحى هى ـ من غير شك ـ المثل الأعلى لما ينبغى أن يحياها فيما بينه وبين نفسه ، بل فيما بينه وبين ربه أولا ، ثم فيما بينه وبين أشباهه بعد ذلك فإذا خلصت له الحياة بهذا المعنى ، فقد خلص هو إلى الحياة التى ينبغى أن يحياها ، والتى يتحقق بها المثل الأعلى فى الحق إذ يقول أو يفعل ، وفى الخير إذ يعايش أو يعاشر ، وفى الجمال إذ يدرك ويتذوق . والحياة الروحية بهذا المعنى أيضا كانت حياة السلف الصالح من المسلمين ؛ فقد أشرق على العالم ضوء الحياة الروحية المحمدية على يد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما فتئت أنوارها يمتد ضاؤها وتنتشر ظلالها منذ ذلك الحين على أيدى طبقات من الصحابة والتابعين ، ومن تبع التابعين من الزهاد ، والعباد ، والنساك ، والفقراء ، والصوفية ومن جاء بعدهؤلاء وأولئك من الذين فلسفوا التصوف . حتى جاء على الحياة الروحية حين من الدهر

غلبت عليها فيه الفلسفة ، فإذا بفريق من الباحثين يزعم لنفسه ويزعم للناس ، أن حياة روحية قوامها هذا التصوف قد دخلت على الإسلام وهى ليست منه فى شىء وقد استمدت عناصرها الأولى والأخيرة من منابع أجنبية عن الإسلام : ذهب بعضهم إلى أنها فارسية ، وذهب بعضهم الآخر إلى أنها هندية . وزعم فريق أنها يونانية فلسفية أو نصرانية إلى غير ذلك من الآراء والمزاعم الكثيرة التى ذهب إليها ونادى بها فريق من المستشرقين ، وجاراهم فيها طائفة من الباحثين الشرقيين . والواقع أننا إذا تصفحنا تاريخ الحياة الروحية الإسلامية ، وتأملنا العناصر الرئيسية التى انبثت فيها ، والمعانى الحقيقية التى انطوت عليها ألفيناها إسلامية خالصة وألفينا إسلامية فى عناصرها العلمية والعملية جميعا بل وفيما اصطبغت به من الألوان الفلسفية التى يزعم الزاعمون فيها أنها أجنبية عن الإسلام ، والواقع أنها ليست كذلك ،

ولكى يتضح هنا الذى أعنيه ، لنرجع معاً إلى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية . أو بعبارة أدق ، إلى الحياة الروحية المحمدية التى هى فى رأيى المنبع الأول الذى فاض منه أدق الحقائق وأرق الدقائق ، ومنه استمد الصوفية والزهاد تصوفهم وزهدهم . وإليه يرد الباحثون المنصفون ما أخذه أولئك وهؤلاء من رياضات ومجاهدات ، وما فتح به على أولئك وهؤلاء من مشاهدات ومكاشفات . فإذا وقفنا عند حياة محمد بن عبد الله عليه صلوات الله فيما كان يأخذ به نفسه من تحنث فى غار حراء قبل البعثة ، وما كان يأخذ به نفسه من تصفية ، وقلبه من تنقية ، وفيما كان يعكف عليه من تدبر وروية وتأمل فى ملكوت السموات والأرض ، وفى بديع السموات والأرض ، وفيما خلق الله للناس من شىء ، وفيما انتهى إليه من هذا كله ، من صفاء البصيرة ، ونقاء السيرة ، حتى أصبح أهلا لأن يرى الرؤيا الصادقة ، وأنه ما كان يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح . ومافتئ كذلك حتى تهيأت نفسه ودق حسه ورق قلبه وأصبح قابلا لأن يقبل عليه ربه فنزل عليه ملكه . هنالك أصبح محمد أهلا لأن ينزل عليه جبريل ، وأن يقرئه أول ما قرأ من آيات القرآن الكريم فإذا هو يقرأ باسم ربه الذى خلق ؛ خلق الإنسان من علق ، وإذا هو يقرأ باسم ربه الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم . هنالك تلقى محمد هذا العلم من لدن الله ، وهنالك قرأ محمد هذه الآيات البينات

فكانت قراءته لها نهاية عهد وفاتحة عهد : نهاية عهد لحياة مادية وثنية ، كان يغرق فيها العرب مع الأصنام فى عبادة ما أنزل الله بها من سلطان ، ثم إذا بهذه العبادة الوثنية تستحيل على يد محمد ، عبادة لله ، الواحد ، الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . هنالك عندما قرأ محمد هذه الآيات تغيرت الحياة وتغير معها كل شىء فى قلوب العرب ؛ فإذا هم يستمدون من هذا المعين الفياض أصدق الآيات وأسمى المعانى ، ويحققون على يديه أرفع المثل .

* * *

ثم بعد أن هبط الوحى على محمد ماذا كان يفعل ؟ وبماذا كان يأخذ نفسه ؟ وعلى أى لون من ألوان الرياضة والمجاهدة كان يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان ؟ .

لقد أصبح محمد صلى الله عليه وسلم نبياً بعد أن كان متحنثاً وكان يأخذ نفسه بألوان من الرياضة وضروب من المجاهدة ، وكان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول له : « لم تفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر » ؟ فكان يجيب عليه الصلاة والسلام : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » ؟ هذا الشكر الذى كان يمعن محمد فى تحقيقه نحو ربه ، وذلك الجهاد الذى كان يأخذ نفسه فيه بالرياضة والمجاهدة ، وغير هذا وذاك من تلك المعانى الروحية الصادقة من ذكر وشكر وصبر وقناعة وزهد ، ورضى بكل ما يبتلى به فى سبيل الدعوة إلى الله . كل أولئك كانت معانى أخذ بها محمد نفسه ، ثم إذا هو يصبح فيها كقدوة حسنة ، وأسوة صالحة لكل من لبى دعوته واستجاب لدينه .

والذى يعنينى من هذه المقدمات ، هو أن الحياة الروحية المحمدية سواء فى تحنث محمد عليه الصلاة والسلام أو فى حياته بعد البعثة نبيا ، كانت المصدر الأول للحياة . الروحية الإسلامية ممثلة فى الزهاد حينا ، وفى العباد والنساك والفقراء والصوفية أحيانا ، وليس من شك فى أن الصبر والشكر والرضى وما إلى هذا كله من المعانى التى حققها محمد عليه الصلاة والسلام فى نفسه ، هى هى بعينها التى استحالت

على أيدى الصوفية مقامات وأحوالا ، فالصوفية قد رسموا طريقا كله مراحل ومراتب : مراحل يسلكها السالك فى سبيله إلى الله ، وفى هذه المراحل يتلقى ألوانا من التهذيب وضروبا من الترهيب والترغيب يأخذ نفسه بها تارة ويأخذه بها شيخه أو مدبر أمره من الناحية الروحية من ناحية أخرى على هذا المعنى الذى أخذ به الصوفية أنفسهم من رياضات ومجاهدات ، وعلى هذا المعنى الذى يحقق لهم فيه أروع المكاشفات وأمتع المشاهدات، ينبغى أن تفهم الحياة الروحية الإسلامية مذظهرت على أيدى الزهاد ، وأخذت تتطور بعد ذلك على أيدى الصوفية . ثم نحن لانجد المصدر الإسلامى للتصوف ولحياة الصوفية الروحية فى حياة محمد فحسب ، وإنما نحن واجدوه أيضاً فى أحاديثه وفى أدعيته وفيما كان يقول فى مناسبات تختلف باختلاف الظروف . فهو قد دعا إلى الحب وإلى الإخاء وإلى التسامح . وهو عليه الصلاة والسلام قد دعا إلى الاستقامة فى الخلق ، والسلامة فى القول . والرجاحة فى العقل ؛ والوفاء بالعهد ، وعدم الإخلاف فى الوعد إلى غير ذلك من الفضائل الكثيرة التى ينبغى أن يتحلى بها المسلم وهو بعد هذا كله قد ناجى ربه فأصبح صفيه ونجيه بعد أن أصبح خليله ونبيه . وهو فى مناجاته لربه كان يقوم الليل وكان يعتكف على نفسه دائبا على تصفيتها وتنقيتها ؛ وهو فى كل مسالكه ومناهجه وفى كل ما كان يصدر عنه أو ينسب إليه كان مثلا أعلى للمسلم الذى ينبغى أن يحيى حياة روحية إلى جانب ما يحيا من حياة عملية يؤدى فيها ما عليه من واجب نحو أشباهه بقدر ما يؤدى ماعليه من ذلك الواجب نحو ربه فى حياته الروحية الخالصة ثم ليس الأمر فى المصادر الإسلامية واقفا عند هذا الحد ؛ وإنما هو يتجاوزها إلى القرآن نفسه : فالقرآن هو المنبع الأصفى ؛ والمنهل الأشفى الذى سلك إليه الصوفية أول ماسلكوا طريق الاستسقاء والاهتداء . استقوا منه واهتدوا به بقدر ما استقوا من الحياة الروحية المحمدية واهتدوا بها ؛ ولم يهتدوا بالقرآن أو يستقوا منه من الناحيتين العلمية والعملية فحسب ، وإنما كان ذلك أيضا من الناحية الذوقية النفسية ، فهم عندما يذهبون مذاهبهم فى الحب مثلا — فى الحب الإلهى الذى يعد عندهم المحور الرئيسى الذى تدور عليه أفكارهم وأذواقهم — تراهم يلتمسون

مصدرهم من القرآن « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عند دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » هذا الحب المتبادل بين الله وبين العبد ، وبين العبد وبين الله . وهو قوام الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى ، وهو ذلك الذى وجه قلوبهم وسيطر على عقولهم ، وجعلهم يصدرون فيما صدر عنهم من شعر ونثر ، عن أدق المعارف ، وألطف اللطائف ، ذلك لأنهم صدروا عن أقوم الكتب كما صدروا عن أكرم الخلق . ونحن إذا تأملنا ما خلفه الصوفية من آثار فى الحب وما تفرع على هذا الحب من مذاهب فى وحدة الشهود ، أو فى التجلى أو فى معرفة الحقائق والدقائق ألفينا هذا كله مردودا إلى أصله فى كتاب الله بقدر ماهو مردود إلى سنة رسوله من الناحية العملية .

فنحن نعرف مثلا أن زعيم الحب الإلهى وإمام العاشقين ، هو شرف الدين عمر بن الفارض . لقد أغرق هذا الشاعر الصوفى فى الحب الإلهى ، وأغرق إلى الحد الذى جعل منه سلطانا للعاشقين ، وإماما للمحبين على حد ما تفهم من معنى قوله :

نسخت آية العشق من قبلى ... فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل
وكل فتى يهوى فإنى إمامه ... وإنى برىء من فتى سامح العزل

وعلى ما نفهم من قوله مخاطبا ربه عز وجل :

كل من فى حماك يهواك لكن ... أنا وحدى بكل من فى حماكا
يحشر العاشقون تحت لوائى ... وجميع الملاح تحت لواكا

* * *

ونحن نعرف أيضاً أبيات رابعة العدوية التى سبقت فيها ابن الفارض فى مضمار الحب الإلهى ، وهى تلك التى تناجى فيها ربها فتقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواك

وأما الذى أنت أهـــل له فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمـد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

* * *

ونحن نصرف بعد هذا كله أبيات محى الدين بن عربى التى يتحدث فيها عن الحب ، وينتهى إلى أن الإسلام بمعناه الحقيقى إنما هو دين الحب الذى أدين به لله ، والذى كان محمد عليه الصلاة والسلام إمامه :

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب دينى وإيمـــانى

وليس الحب أو ليس الدين الذى أقيم على الحب هنا شيئا آخر غير دين الإسلام على حد ما يفسره ابن عربى نفسه فى ( ترجمان الأشواق ) الذى ضمنه أشعاره ، وشرحه لهذه الأشعار . هذا كله نعرفه ، ولو أردنا أن نرده إلى أصوله الإسلامية لوجدنا أنه يمكن أن نلتمس له مصادره فى القرآن الكريم ، وفى الحديث الشريف وفيما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم من أقوال وأحوال . فالقرآن الكريم بما حوى من دعوة الى الحب المتبادل بين الله والناس ، وفيما قرر من أن الله هو المصدر الحقيقى لكل ما يمتلىء به الكون من آيات وجود ، ولكل ما يصدر عن الناس من أعمال ، وأن الله نور السموات والأرض ، وأننا أينما نولى فثمَّ وجه الله ، وبما يدعو اليه من أن يسلك الناس فيما بينهم وبين أنفسهم مسالك الحق والخير والجمال ، وفيما بينهم وبين أشباههم مسالك الحب والإخاء والمساواة . كل أولئك إنما نجده أصلا لكل ما قاله الصوفية من أقوال وماذهبوا إليه من مذاهب فى التجلى : تجلى الله فى الكون ، تجلى أفعاله وتجلى أسمائه وتجلى ذاته على أوجه مختلفة من التجلى . كل أولئك يرده الصوفية ويرده العقل المحقق إلى مصدره الإسلامى فى قوله عز وجل : « الله نور السموات والأرض » ، وفى قوله تبارك وتعالى : « فأينما تولوا فثمَّ وجه الله » . ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، وانما هو يتجاوزه إلى إثبات أن الله هو الفاعل الحقيقى ، وأن الإنسان من الله إنما هو بمثابة القلم فى يد الكاتب يحركه كيفما شاء ويديره ويجرى عليه أيما شاء ، حتى إذا صدر عن الإنسان فعل زعم لنفسه ، وزعم له الناس أنه صادر من إرادته ، والحقيقة أنه صادر عن مشيئة الله ، وذلك فيما يخرجه الصوفية من قول الله تعالى

إذ خاطب نبيه بقوله : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » فالآية فى ظاهرها تدل على أن الله قد نصر المسلمين وأعز جندهم ، وأعزهم بنبيهم ، وأعز نبيهم بهم ولكن الصوفية بما أوتوا من براعة فى التأويل ، استطاعوا أن يردوا إليها ما يرمون إليه من إثبات أن الله هو كل شىء وأن ما عداه ليس شيئا وأنه عزوجل هو الذى يفعل ؛ وهو الذى يدبر . وأن ما يفعله وما يدبره هو الذى يظهر على أيدى الناس ؛ فيظنون أنه عنهم ؛ والحقيقة أنه عن الله ومن الله وبالله . فإذا كان ذلك كذلك فقد تبينا إذن إلى أى حد ؛ وعلى أى وجه يمكن أن يقال : إن مصدر الحياة الروحية الإسلامية أسلامى خالص .

* * *

صحيح ، أن المسلمين اتصلوا بغيرهم من الأمم وأخذوا عنهم وتأثروا بهم : أخذوا عن اليونان بعض الفلسفة ، وأخذوا عن الهند والفرس أشياء أخرى ، ولكن ليس من شأن ما أخذوه عن أولئك وهؤلاء أن يجعل مصدر الحياة الروحية الإسلامية أجنبيا عن الإسلام . الحق الذى لا شك فيه ، أن القرآن والحديث وحياة نبى الإسلام متحنثا أولا ، ثم نبيا مرسلا بعد ذلك .

هى المنابع الصافية الإسلامية الخالصة التى صدرت عنها الحياة الروحية على أيدى الزهاد والعباد أولا ، ثم على أيدى الصوفية ومفلسفى الصوفية بعد ذلك . فإذا صح هذا كله فما أمعن المستشرقين فى الخطأ وما أمعن المقلدين لهم فى الضلال والزلل ! وما أجدر أولئك وهؤلاء أن يخلصوا من التعصب والتعسف والتكلف أن يخلصوا إلى درسة الحياة الروحية الإسلامية دراسة مبرأة عن الهوى والغرض إنهم إن فعلوا فقد وصلوا إلى معرفة الحقيقة على الوجه الذى ينبغى أن تعرف عليه وهو أن المثل الأعلى فى الحياة الروحية إنما كان إسلاميا ، وأن المورد الأصلى الذى ورده الصوفية إنما كان إسلاميا فاضت أسراره ، وأشرقت أنواره أول ما أشرقت من غار حراء ، ثم امتدت هذه الأنوار وشاعت تلك الأسرار ، فإذا هى تملأ الأرض العربية نورا ، وإذا هى تفيض على قلوب المسلمين نورا .